

# يهود الدونمة

إعداد

د. هيلة بنت سعد بن محمد السليمي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

قسم التاريخ- كلية الشريعة

جامعة أم القرى

يعتقد الكثيرون خطأً أن تأمر اليهود على إسقاط الدولة العثمانية قد بدأ في عهد هرتزل Herzl<sup>(١)</sup> لكن القرائن التاريخية تثبت أن تلك المؤامرة قد سبقت هرتزل بزمان طويل، فالحركة اليهودية التي استهدفت إلغاء الخلافة الإسلامية وإسقاط الدولة العثمانية مرت بمراحل عديدة سلمت كل منها الراية للأخرى بعد أن قدمت لها أقصى ما بوسعها من دعم، كما أن لكل مرحلة منها من الوسائل ما يكفي مقتضياتها وحاجاتها، ولعل ما قام به يهود الدونمة في هذا الصدد يعد أولى مراحل تلك الحركة اليهودية.

فمن هم الدونمة؟ وما هو الدور الذي قاموا به؟

(الدونمة) هي كلمة تستعمل كصفة مشتقة من المصدر التركي (دونمك Donmek) بمعنى الرجوع أو العودة أو الارتداد<sup>(٢)</sup>. وقد أطلق الأتراك هذه الصفة على اليهود الذين هاجروا من أسبانيا إلى تركيا وتظاهروا بالإسلام<sup>(٣)</sup>.

ففي أواخر القرن التاسع عشر الهجري الموافق لأواخر القرن الخامس عشر الميلادي وصلت إلى تركيا أعداد كبيرة جداً من اليهود قادمة من أسبانيا على أثر ما لقوه من اضطهاد على يد المسيحيين الأسبان الذين تولوا حكم البلاد بعد أن أفل نجم المسلمين

---

(١) تيودور هرتزل: صحفي يهودي ولد في مدينة بودابست عاصمة المجر في عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م من أبوين يهوديين وكان جده لأمه حاخاماً يهودياً انتقل بعد أن أنهى دراسته الثانوية إلى النمسا ودرس القانون في جامعة فيينا وبعد تخرجه اشتغل بالصحافة والأدب وفي عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م نشر كتابه الذي أطلق عليه (الدولة اليهودية) وضمنه الحل الأمثل في رأيه للمشكلة اليهودية وهي إقامة دولة يهودية تجمع شتات اليهود في العالم، ولتحويل الفكرة التي ضمنها كتابه إلى حقيقة راح هرتزل يتصل بالعديد من الساسة الأوروبيين للحصول على الدعم والتأييد الدولي، كما بذل جهوداً كبيرة في محاولة لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالموافقة على إقامة دولة يهودية في فلسطين ولكن جهوده باءت بالفشل، ولإقامة الأساس التنظيمي للحركة الصهيونية عقد هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م الذي كان له أهمية كبيرة في مسيرة الحركة الصهيونية السياسية الحديثة.

- ديزموند ستيوارت: تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية، تعريب: فوزي وفاء و إبراهيم منصور، الطبعة الثانية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ص ١٧، ٣٩، ٦٣.

- حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، جزءان (القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م) ج ١ ص ٧٦.

(٢) أحمد نوري النعيمي: يهود الدونمة، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة، عمان: دار البشير، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ص ٨.

(٣) محمد عمر: يهود الدونمة، الطبعة الثالثة (الكويت: دار الوثائق، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) ص ١٢، ٢٨.

من سماء الأندلس - كغيرهم من أهل الكتاب - في ظل الحكم الإسلامي كل رعاية وحرية وإحسان. فتضاعفت أعدادهم وورثت ثرواتهم<sup>(١)</sup> ولكن هذه النعمة التي لم يقدرها اليهود حق قدرها زالت بزوال الحكم الإسلامي عن الأندلس على أثر التحالف الصليبي الذي تحقق لأسبانيا النصرانية بزواج فريديناند ابن يوحنا ملك أروغوان من ابنة عمه ايزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة ومن ثم إعلانهما ملكين لقشتالة في عام ٨٨٢هـ / ٤٧٩م<sup>(٢)</sup>، وكان أهم الأسس التي قام عليها هذا التحالف هو العمل المشترك من أجل الإجهاز على الكيان الإسلامي في الأندلس، الذي كان متهاكاً آنذاك من جراء التمزق والتناحر الذي أصاب الإمارات الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

وقد جنا الصليبيون الحاقدان ثمار تحالفهما حين تمكنوا من القضاء على آخر مملكة إسلامية في الأندلس وهي مملكة بني الأحمر، وحين سقط آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس وهي غرناطة في قبضتهما في ربيع الأول من عام ٨٩٧هـ الموافق يناير ٤٩٢م<sup>(٤)</sup>.

وعلى الرغم من أن حاكم غرناطة<sup>(٥)</sup> لم يسلمها إلا بعد أن أخذ منهما عهداً وكتب عليهما وثيقة مكونة من سبع وستين بنداً، كان أهم ما تضمنته هو ضمان سلامة سكان البلاد، الصغير منهم والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم،

---

(١) أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة، عمان: دار البشير، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ص ص ٢٢ - ٢٣.

- إيلان هاليفي: المسألة اليهودية، تعريب: فؤاد جديد الطبعة الأولى (دمشق: مكتب الخدمات الطباعية: ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ص ص ٩٧ - ١٠٤.

(٢) جلال يحيى: المغرب الكبير، ٤ أجزاء (بيروت: دار النهضة العربية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ج ٣، ص ص ١٠ - ١١.

(٣) يوسف بن علي الثقفي: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، الطبعة الأولى (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ص ٤٢.

(٤) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ٨ أجزاء (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ج ٤، ص ٥٢٥.

(٥) الحاكم المسلم الذي سقطت في عهده غرناطة بيد الأسبان هو أبو عبدالله محمد ابن السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الأحمر، آخر ملوك بني الأحمر في الأندلس.

- المصدر نفسه: ج ٤، ص ٥٢٨.

وحرية إقامة شعائرتهم على ما كانت<sup>(١)</sup> إلا أن النصارى نكثوا العهد فبعد مضي عدة أشهر على تسليم غرناطة ذهبت تلك المعاهدة أدراج الرياح<sup>(٢)</sup>. حتى آل الحال إلى أن أجبر أولئك الحاقدون المسلمين واليهود على التنصر<sup>(٣)</sup>، وأقيمت محاكم التفتيش<sup>(٤)</sup> بأمر من البابا لهذا الغرض، وكان الطرد من البلاد هو جزاء من يرفض اعتناق النصرانية<sup>(٥)</sup>.

ويبدو أن الأسباب قد وجدوا في ذلك الموقف فرصة للانتقام من اليهود حيث كانت موجة غضب الأسباب عليهم قد بلغت أقصاها آنذاك من جراء تغلغلهم في المجتمع الأسباني وتحكمهم باقتصاد البلاد عن طريق الربا الفاحش، فاستولوا على الأملاك والعقارات، كما عمدوا إلى إشعال نار الخلافات بين الطوائف الدينية المختلفة في البلاد<sup>(٦)</sup>

لذا فقد أصدر الملك فريدناند في ٢١ من جمادي الأولى عام ٨٩٧هـ الموافق ٣١ مارس ١٤٩٢م المرسوم التالي: "يعيش في مملكتنا عدد غير قليل من اليهود ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتي عشر سنة وهي تعمل دائماً على توقيع العقوبة على المذنبين وبناءً على التقارير التي رفعتها لنا محاكم التفتيش ثبت بأن الصدام الذي يقع بين

---

(١) يلاحظ هنا أن حاكم غرناطة المسلم لم يتوثق بشروطه لسلامة حرمة المسلمين فقط بل لجميع السكان دون تمييز والذي يشكل اليهود عدداً كبيراً منهم، وفي ذلك دلالة على حرص الحكام المسلمين على رعاياهم الكتابيين حتى في أسوأ الظروف.

(٢) يبدو أن فرديناند وزوجته قد أمضيا على هذه الوثيقة وهما ينيوان نقضها وغرضهما تسهيل الفتح وكسب الوقت، حيث يقصر بإبرام الصلح أجل المقاومة، سيما وأن نقض العهد في عرفهما ليس بالأمر العسير.

(٣) لمصدر نفسه: ج ٤، ص ص ٥٢٥-٥٢٧، جلال يحيى: المرجع السابق، ج ٣، ص ١١.

(٤) محاكم التفتيش: هي محاكم أنشأها (البابا) لأول مرة سنة ١٢٢٠هـ/ ١٢٢٣م للتحقيق في ممارسة الطائفة (الاليجنسية) في جنوب فرنسا واستمرت في العمل حتى القرن ١٩ الميلادي والمحاكم المقصودة هنا هي المحاكم التي عقدت في عهد فرديناند وزوجته ابتداء من عام ٨٨١هـ/ ١٤٨٧م للتجسس على اليهود والمسلمين في أسبانيا حيث مارست بحقهم اضطهادات قاسية من قتل أو تنصير أو طرد أو تعذيب، وقد ألغيت في أسبانيا عام ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م وتحولت اختصاصاتها إلى إدارة حكومية تدعى (المكتب المقدس) ولا يزال لهذا المكتب الحق في إصدار الأحكام بشأن قضايا الإيمان والشؤون الخلقية.

- محمد شفيق غريال وآخرون: الموسوعة العربية المسيرة، جزآن (بيروت: دار نهضة لبنان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١) ج ٢، ص ١٦٥٤.

(٥) وثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، تعريب: عجاج نويهض، تعليق: شكيب أرسلان، ٤ أجزاء، الطبعة الرابعة (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م) ج ٢، ص ٥٧.

(٦) س. ناجي: المفسدون في الأرض... جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ، الطبعة الثانية (دمشق: العربي للإعلان والنشر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م) ص ص ٢٨٥-٢٨٧.

المسيحيين واليهودي يؤدي إلى ضرر عظيم ويؤدي بالتالي إلى القضاء على المذهب الكاثوليكي، ولذا قررنا نفي اليهود ذكوراً وإناثاً خارج حدود مملكتنا وإلى الأبد، وعلى اليهود جميعاً الذين يعيشون في بلادنا وممتلكاتنا - ومن غير تمييز في الجنس أو الأعمار - أن يغادروا البلاد في غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام وعليهم أن لا يحاولوا العودة تحت أي ظرف أو أي سبب. ومن أجل أن يتدبر اليهود أمورهم استعداداً للرحيل منحناهم حمايتنا الملكية، أرواحهم وأملاكهم لغاية آخر يوليو. ونسمح لهم كذلك بأن ينقلوا معهم براً وبحراً ما يملكون باستثناء الذهب والفضة والعملة الذهبية والأشياء الأخرى<sup>(١)</sup> التي يشملها قانون المنع العام<sup>(٢)</sup>.

وبمقتضى هذا القرار طرد اليهود من أسبانيا شر طردة وأصبح نصف مليون يهودي<sup>(٣)</sup> مشردين بلا مأوى على شواطئ البحر الأبيض<sup>(٤)</sup>، عرضة لأن يلقوا حتفهم بعد أن يفتك بهم الجوع والمرض لكن شاءت إرادة الله أن تتجهم من هذا المصير المحتوم، فهيأ لهم أسباب النجاة حيث فتحت الدولة العثمانية أبوابها على مصاريعها لاستقبالهم حين لبى السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٧ هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢ م)<sup>(٥)</sup> الطلب الذي تقدم به إليه مجموعة من حاخامي اليهود ليسمح لأولئك اليهود الذين أخرجوا من أسبانيا بالهجرة إلى الدولة العثمانية وأصدر أوامره إلى حكام الأقاليم في الدولة العثمانية بعدم رفض اليهود

---

(١) يبدو التناقض واضحاً في هذا المرسوم الملكي ففي الوقت الذي يمنح فرديناند اليهود حمايته لأملاكهم ويسمح لهم بنقل ما يملكون معهم يستثني الذهب والفضة والعملة وأشياء أخرى لم يصرح بها

(٢) عبدالله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، الطبعة الأولى (دمشق: دار القلم، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م) ص ١١٧ - ١١٨.

(٣) بعض المصادر ذكرت بأن عدد اليهود أكثر من ذلك، فعلى سبيل المثال ذكر لوثرروب ستودارد أن عددهم ثمانمائة ألف - لوثرروب ستودارد: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١.

(٤) بالنسبة للمسلمين الذين خرجوا من أسبانيا فراراً بدينهم كان أغلبهم قد استقر في مراكش وتونس والجزائر. - المقري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٢٨.

(٥) تذكر بعض المصادر أن السلطان العثماني الذي رحب بهجرة اليهود إلى أراضي الدولة العثمانية، هو السلطان مراد الثاني (٨٤٢ - ٨٥٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١ هـ) وممن قال بذلك الجنرال جواد رفعت ألتخان، وقد يكون المقصود بذلك هجرة يهودية سابقة لموضوع حديثنا هنا لأن فترة حكم السلطان مراد سابقة لتاريخ هذه الهجرة. - جواد رفعت ألتخان: الإسلام وبنو إسرائيل، تعريب: يوسف وليشاه أور الكيراي (الرياض: مطبعة سفير، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) ص ٢٠٣.

أو وضع العقبات أمامهم<sup>(١)</sup>، فبدأ اليهود يتدفقون على أراضي الدولة العثمانية واستقروا في العديد من المدن الرئيسية مثل استانبول وأدرنه وإزمير<sup>(٢)</sup>، ولا سيما في سلانيك<sup>(٣)</sup>.

وهكذا وجد اليهود في أراضي الدولة العثمانية الملاذ الآمن، فعاشوا في ربوعها آمنين في كافة شؤون حياتهم<sup>(٤)</sup>.

ولم يكتف العثمانيون بالسماح لليهود بالإقامة في بلادهم، بل ومنحوهم الحرية الدينية<sup>(٥)</sup> في ظل نظام الملل<sup>(٦)</sup> الذي كانت الدولة تعمل به، كما أتاحوا لهم المشاركة في جميع

- 
- (١) أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ص ص ٢٧ - ٢٨.
- أحمد بن عبدالله الزغبى: العنصرية اليهودية وأثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) ج ٢، ص ٦١٤.
- إيلان هاليفي: المرجع السابق، ص ١٠٧.
- (٢) لوثرروب ستودارد: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٧.
- (٣) سلانيك: ميناء في اليونان يبعد عن استانبول بنحو ٥٢٠ كلم ويربط بينهما خط حديدي، وقد فتحها العثمانيون في عهد السلطان مراد الثاني عام ٨٥٢هـ / ١٤٣١م وتعد أهم ثغر تجاري بالدولة العثمانية في أوروبا بعد استانبول، وتشتهر بتجارة الحرير والقطن والتبغ، وبعد هجرة اليهود من أسبانيا صاروا يشكلون معظم سكانها وأصبحت بؤرة الحركات المعادية للدولة العثمانية.
- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، جزءان، الطبعة (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م) ج ١، ص ٤٦٦.
- (٤) مصطفى صبري: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، تقديم ودراسة: مصطفى حلمي، الطبعة الأولى (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ٨٩.
- (٥) إبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية، المعروف بالتحفة الحليمية، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص ٢١.
- (٦) نظام الملل: هو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة، بل على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا وكان يطلق على كل مذهب ديني ملّة، وكان لكل ملّة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية كما يقوم بالحكم في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بإتباع ملته دون تدخل من جانب الدولة العثمانية، وقد وضع هذا النظام في زمن السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية، وكان له دور كبير في منح الرعايا غير المسلمين كياناً مستقلاً.
- عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترة عليها، أربعة أجزاء (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤٠٠، ١٤٠٣، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٠، ١٩٨٣، ١٩٨٦م) ج ١، ص ٦٨.
- زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، الطبعة الثانية (عمان: دار الفرقان، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ص ٨٥.

جوانب الحياة الاقتصادية والثقافية<sup>(١)</sup> والسياسية والاجتماعية فتقلدوا أعلى المناصب فكان منهم المستشارون والأطباء والأدباء والتجار<sup>(٢)</sup>.

وبهذا فإنه يمكن القول بأن يهود أسبانيا لم يجدوا في الدولة العثمانية المأوى فحسب بل وجدوا أيضاً الحرية والرفاهية، وقد شهد بذلك أبناء ملتهم حيث يقول الزعيم الصهيوني (حاييم وايزمان Chaim Weizmann)<sup>(٣)</sup>: "إنني أفضل عدم اقتراف الظلم لأن العالم الإسلامي يعامل اليهود بقدر كبير من التسامح، فقد فتحت الإمبراطورية العثمانية أبوابها لليهود عندما طردتهم أسبانيا، ويجب على اليهود ألا ينسوا ذلك"<sup>(٤)</sup> كما شهد بذلك بعض المؤرخين الغربيين ومنهم برنارد لويس في كتابه (استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية) حيث يقول: "... وقد ازداد عدد اليهود أيضاً... وازداد هؤلاء في استانبول منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بصورة خاصة إذ جاء الكثيرون منهم من اسبانيا والبرتغال والبلاد الأوربية الأخرى باحثين عن مكان اللجوء إزاء اضطهاد المسيحيين لهم إلى حكم السلاطين العثمانيين المتسامح وتمتع اليهود والمسيحيون على السواء بحرية العبادة في استانبول في ظل واقع التاريخ الإسلامي والعثماني بهذا الخصوص، ومنحوا قدراً كبيراً من الحرية القومية"<sup>(٥)</sup>.

---

(١) في عام ١٨٩٨هـ / ١٤٩٣م أي بعد سنة واحدة من طرد اليهود من أسبانيا أنشأ اليهود في استانبول أول مطبعة عبرية.

- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ص ٣٥.

(٢) طاهر شاش: التطرف الإسرائيلي جذوره وحصاده، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الشروق، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ص ٢٨.

(٣) حاييم وايزمان: زعيم صهيوني ولد في روسيا وحصل على درجة الدكتوراه من ألمانيا ثم هاجر إلى بريطانيا في عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م حيث عمل مدرساً للكيمياء في جامعة مانشستر ثم تولى منصب وزارة البحرية البريطانية، وقد كان له دور كبير في استصدار وعد بلفور عام ١٣٢٦هـ / ١٩١٧م كما ساهم في تأسيس الجامعة العبرية في القدس عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م وفي عام ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م انتخب أول رئيس لدولة إسرائيل واستمر في هذا المنصب حتى وفاته في عام ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م وله العديد من المؤلفات أهمها (التجربة والخطأ) ومذكرات بعنوان (مذكرات وايزمان).

- أحمد الزغبيني: المرجع السابق، ج ٣، ص ٥٢.

(٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٦١٥.

(٥) برنارد لويس: استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تعريب: سيد رضوان علي الطبعة الثانية (الرياض: الدار السعودية للنشر، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص ١٣٥.

والتساؤل المطروح هو: هل حفظ اليهود للمسلمين عامة ولدولة الخلافة خاصة هذا الجميل الذي شهد به العدو قبل الصديق؟

الحقيقة أن التاريخ والواقع يثبت أن اليهود لم يتكروا للمسلمين ودولتهم فحسب بل خانوهما خيانة عظمى، فلم تكن الحفاوة التي قوبلوا بها في دولة الخلافة الإسلامية، والمعاملة الكريمة التي حظوا بها كافية للتغلب على ما طبعوا عليه من ذميم الخصال، فسرعان ما تناسى اليهود الذين كانوا بالأمس القريب مشردين معدمين ليس لهم مأوى ولا هوية، كل ما قدمت الدولة العثمانية لهم وراحوا يعملون في الخفاء على تخريب ديارها وتشويه سمعة رجالها والسيطرة على أموالها، ومن ثم تقويض أركانها<sup>(١)</sup>، والأسوأ من ذلك أنهم أقدموا على فعل كل هذا وهم يتلبسون لباس الإسلام ويظهرون غير ما يبطنون، وذلك إنفاذاً لما أوصاهم به مسيحهم الدجال سباتاي زفي الزعيم الروحي لطائفة الدونمة<sup>(٢)</sup>.

#### مؤسس طائفة الدونمة:

يعتبر سباتاي زفي<sup>(٣)</sup> هو مؤسس طائفة الدونمة وهو يهودي من أصل أسباني ولد في أزمير عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٦م وكان أبوه الذي يدعى مردخاي زفي من أكبر تجار أزمير<sup>(٤)</sup>.

وكانت علامات الذكاء والنجاسة قد بدت على سباتاي منذ سنواته الأولى فأدخله والده مدرسة يهودية تعلم فيها العلوم الدينية اليهودية وما أن بلغ الخامسة عشرة حتى رخص له بمزاولة التدريس واستمر في نفس الوقت في دراسة (الكابالا)<sup>(٥)</sup>، كما كان يتميز

---

(١) جواد رفعت أتلخان: الإسلام وبنو إسرائيل، ص ٢٠٢.

(٢) محمد عمر: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٣) تكتب في بعض المراجع (سباتاي صبي) أو (شبتاي زفي).

(٤) مصطفى طوران: يهود الدونمة، تعريب: كمال خوجة، الطبعة الأولى (بيروت: دار السلام للطباعة والنشر، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ٧.

(٥) الكابالا أو القباله: هي مصطلح عبري يعني التلقي أو الاستلام، والكابالا تعاليم مستلمة منتقلة من جيل إلى آخر عند اليهود منذ أقدم العصور وهي مزيج من الفلسفة والتأويلات الباطنية، وتقوم على الشعوذة والسحر والتنجيم.



بطلاقة اللسان وجمال المحيا والقدرة على التأثير في محدثيه<sup>(١)</sup>.

وفي تلك الفترة راجت في المجتمع اليهودي شائعة مفادها أن المسيح<sup>(٢)</sup> المنتظر سوف يظهر في عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م ليقود اليهود إلى السيادة على العالم والرفاهية<sup>(٣)</sup>.

وقرر سباتاي أن يستغل هذه الشائعة، وبدأ يعد نفسه لانتحال شخصية ذلك المسيح اليهودي المزعوم، فأخذ يواصل الصيام، ويكثر من التطهر والتعطر والعزلة، وكأنه يريد إضفاء القدسية على نفسه، وعندما حل العام المرتقب (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) أعلن بين تلاميذه وأتباعه أنه المسيح المنتظر<sup>(٤)</sup>، ولم يجد صعوبة في إقناعهم بصحة ادعائه لأنه كان قد مهد لذلك، كما أيده كثير من اليهود المتتورين لأغراض سياسية<sup>(٥)</sup>، لكن عندما شاع الخبر في أنحاء أزمير تغير الوضع حيث وجد معارضة شديدة من حاخامات اليهود

---

- محمد عبدالله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، الطبعة الثالثة (القاهرة: مؤسسة المختار، ١٤١١هـ / ١٩٩١م) ص ١١٥.

(١) حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي، الطبعة الثالثة (دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ١٢٠.

(٢) المسيح: الصديق وبه سمي عيسى بن مريم عليه السلام لصدقه، وقيل سمي به لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر، وقيل لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمة والأبرص فيبرئه بإذن الله وقد ذكرت في القرآن (المسيح) وهي معربة عن (المسيح) في التوراة كالفرق بين موسى وموشى.

- جمال الدين محمد ابن منظور: لسان العرب، ١٥ جزء، الطبعة الأولى (بيروت: دار صادر) ج ٢، ص ٥٩٤.

- والمسيح في العبرية تعني الرجل الذي طهره يهو، وتأخذ في التوراة معاني عامة فتطلق على الملوك والأنبياء وكل الرجال الذين يقومون بعمل ديني مقدس أما المعنى الخاص فهو النبي أو المخلص الذي يرسله يهو لإنقاذ بني إسرائيل.

- أحمد نوري النعيمي: يهود الدونمة، ص ١٥.

(٣) مصطفى طوران: يهود الدونمة، ص ١٥.

- جواد رفعت ألتخان: الإسلام وبنو إسرائيل، ص ١٠٠ حاشية رقم (١).

(٤) يوسف بك أصف: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م)، ص ٩٢.

- محمد عمر: المرجع السابق، ص ١٥، ١٨.

(٥) سيتضح في جزء لاحق من هذا البحث أن معظم أعضاء الأحزاب السياسية التي قامت لمناهضة الدولة العثمانية وكانت سبب في سقوط الخلافة الإسلامية كانوا من يهود الدونمة.

الكبار<sup>(١)</sup>، وحكم عليه حاخام أزميز الأكبر (جوزيف ايسكاي Ghossef Eskaya) بالإعدام، فما كان من سباتاي إلا أن فر إلى استانبول<sup>(٢)</sup>.

وفي استانبول قابل سباتاي يهودياً يدعى (ابراهيم واسيني Abraham Uasini) كان يعمل في تزييف الأوراق، فقام هذا اليهودي بتزوير وثيقة لسباتاي جعلها على هيئة رسالة قديمة تحمل عنوان (تفسير مزامير سليمان) جاء فيها أن مسيحاً سيبعث اسمه سباتاي زفي، وقد استغل سباتاي هذه الوثيقة في اثبات أنه المسيح المنتظر، فكثر أتباعه وزاد نفوذه في استانبول، ولكن حاخام أزميز أرسل إلى يهود استانبول يحذرهم منه<sup>(٣)</sup>.

وعندما أحس سباتاي بالخطر فر إلى سلانيك التي كانت بمثابة مركز يهودي لدراسة علم الكابالا، وكانت شهرته في هذا المجال قد سبقته إلى تلك المدينة، لذا فقد استقبله يهود سلانيك استقبالاً حافلاً، وأقام فيها فترة طويلة، ولكن لمعاودته الإعلان بأنه المسيح المنتظر عام ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م أنكر عليه حاخامات سلانيك ذلك، واستصدروا حكماً بكفره، واستحقاقه للقتل، فما كان من سباتاي إلا أن غادر سلانيك خشية تطبيق هذا الحكم عليه وأخذ ينتقل من مكان إلى آخر. حيث ذهب في البداية إلى أثينا ثم عاد إلى أزميز ومنها إلى استانبول ثم عاد مرة أخرى إلى أزميز<sup>(٤)</sup>، وكان يردد بين أتباعه أن النجوم والطوالع قد أعلنت عن اقتراب موعد الخلاص وقيام دولة اليهود في فلسطين<sup>(٥)</sup>.

ويبدو أن سباتاي كان يحاول من خلال ترحاله أن يجمع أكبر عدد من الأنصار. وقد تحققت مقاصده ففي عام ١٧٠٣هـ / ١٦٦٣م توجه إلى مصر وتعرف على رجل من وجهاء اليهود في القاهرة اسمه (رفائيل جوزيف جلبي Rofael Ghossef) كان يعمل

(١) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢) مصطفى طوران: يهود الدونمة، ص ١٠.

(٣) محمد عمر: المرجع السابق، ص ص ١٩ - ٢٠.

(٤) حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ص ١٢١ - ١٢٢.

(٥) أن توجه زفي للعمل على عودة اليهود إلى فلسطين يعد البداية الفعلية لعمل اليهود في هذا الصدد والذي تبنته الصهيونية العالمية بعد ذلك بزمان طويل، ومما يثبت ذلك أن تيودور هرتزل كان معجباً للغاية بشخصية سباتاي زفي وكان يفكر في كتابة (أورا) عنه لتمثيلها في الدولة اليهودية بعد إنشائها.

- عبد الوهاب المسيري: اليد الخفية دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الشروق ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) ص ١٠٠.

رئيساً للصيارفة<sup>(١)</sup>، وقد صدّق هذا اليهودي ما يدعيه سباتاي من كونه المسيح المنتظر، لذا راح يغدق عليه الأموال الطائلة، وقام سباتاي بدوره بتوزيع هذه الأموال على فقراء اليهود ولا سيما جماعة منهم التقى بهم في فلسطين بعد رحيله من مصر، كما طلب من صديقه (رفائيل جلي) أن يساعدهم، وكان لهذا العمل دور كبير في تدعيم مركز سباتاي الديني<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه الفترة كانت فتاة يهودية بولندية تسكن في امستردام<sup>(٣)</sup> اسمها (سارة) قد سمعت بأن شاباً وسيماً ادعى أنه المسيح ففكرت بأن تستغله لتكسب الشهرة، فادعت أنها رأت في منامها رؤيا بأن نور سيسطع عليها عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٦م وأنها ستتزوج من المسيح، ووصل خبر ساره إلى سباتاي فاختلف هو بدوره رؤيا تدعوه للزواج من فتاة بولندية، وبعث من يجلب له ساره وتزوج بها في عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٦م بالقاهرة<sup>(٤)</sup>.

ومما يدل على مدى السذاجة التي كان عليها أتباع سباتاي أنهم اعتبروا هذه الأسطورة معجزة من معجزاته.

ثم عاد سباتاي إلى أزمير مسقط رأسه مرة أخرى، واستطاع أن ينشر فيها ادعاءاته مجدداً، وكثر أتباعه وصار اليهود يشدون إليه الرحال من داخل الدولة العثمانية وخارجها. وعادوا حاخامات اليهود في أزمير إعلان فتواهم بإهدار دمه ولكنهم لم يجرؤوا على المساس به لكثرة أتباعه<sup>(٥)</sup>.

---

(١) محمد عمر: المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢٢.

(٣) امستردام: عاصمة هولندا وأكبر مدنها يقع معظمها على الضفة الجنوبية لنهر اج وتربطها قنوان ببحر الشمال، وهي ميناء كبير ومركز تجاري وثقافي عظيم وتعد من أهم الأسواق المالية في العالم وهي مركز مهم لاستخراج الماس، وترجع نشأتها إلى القرن ١٣م ويعيش فيها عدد كبير من اليهود الذين طردوا من أسبانيا والبرتغال.

- الموسوعة العربية الميسرة: ج ١، ص ٢٢٥.

(٤) موفق بني المرجح: صحوة الرجل المريض، الطبعة الأولى (بيروت: دار البيارق، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٢٤٣.

- عبدالوهاب المسيري: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٥) حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ١٢٤.

وهكذا استفحل أمر سباتاي وقلده اليهود تاج ملك الملوك حيث كان يقول: (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر والقدس قصراً لي) وقسم العالم إلى ثمانية وثلاثين منطقة وعين لكل منطقة منها ملكاً على اعتبار أنه هو الذي سيحكم العالم كله، وأصبحت مقابلته لا تتم إلا بمواعيد ومراسيم دقيقة<sup>(١)</sup>. واستطار شر سباتاي وتمادى في جرأته حتى أصبح يوقع رسائله ومراسيمه بلقب (سباتاي زفي الإبن الوحيد والأول لله) -والعياذ بالله-<sup>(٢)</sup>.

ولأن خطر سباتاي قد تجاوز خداع اليهود والعبث بعقولهم إلى خطر يتهدد الدولة برمتها. لذا فقد أبلغ قاضي أزمير الصدر الأعظم بأمره، فصدرت الأوامر بالقبض عليه وإحضاره إلى استانبول<sup>(٣)</sup>.

ويجدر التساؤل هنا عن سبب تأخر السلطات العثمانية لوضع حد لهذا اليهودي المدعي حتى استفحل شره وأصبح يمثل خطراً يهدد كيان الدولة؟

ونرى أنه يمكن تفسير ذلك بأن سياسة التسامح الديني وحرية المعتقد والاستقلالية بالأمور الدينية التي عملت بها الدولة العثمانية مع رعاياها من غير المسلمين قد جعلت السلطات العثمانية تنظر إلى حركة سباتاي زفي في بادئ أمرها على أنها ظاهرة دينية يهودية ليس من شأنها التدخل فيها، ولكن عندما استفحل أمر تلك الحركة رأت ضرورة التدخل.

وهناك من يبرر ذلك بانشغال الدولة العثمانية آنذاك بحرب جزيرة كريت<sup>(٤)</sup>.

وعندما مثل سباتاي أمام الجهة المسؤولة أنكر كل التهم التي وجهت إليه، ولكن لكثرة الأدلة التي تدينه فقد صدرت الأوامر بسجنه فأودع سجن جناق قلعة (الدرنيل)<sup>(٥)</sup>.

---

(١) أحمد نوري النعيمي: يهود الدونمة، ص ٢٧.

(٢) مصطفى طوران: يهود الدونمة، ص ١٤.

(٣) إبراهيم بك حليم: المصدر السابق، ص ١٤٤.

- يوسف بك أصاف: المصدر السابق، ص ٩٢.

(٤) مصطفى طوران: يهود الدونمة، ص ١٤.

(٥) موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص ٢٤٤.

وفي هذه الفترة ظهر حاخام يهودي بولندي اسمه (ناحيم كوهين Naheem Kohein) زار سباتاي في سجنه، وادعى بأنه هو أيضاً المسيح المنتظر وأن ذلك لا يتعارض مع كون سباتاي مسيحياً لأن الكتب اليهودية المقدسة تبشر - حسب ادعائه- بمسيحيين وليس بواحد<sup>(١)</sup>.

وقد نتج عن ظهور هذا المنافس لسباتاي زفي حدوث نزاع شديد بينهما مما حدا بناحيم كوهين إلى تقديم شكوى للسلطات العثمانية يدعي فيها بأن سباتاي يخطط لإنشاء دولة يهودية داخل الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>، وعلى أثر ذلك قُدم سباتاي زفي للمحاكمة بأمر من السلطان محمد الرابع (١٠٨٥ - ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م) وشكلت هيئة علمية لمحاكمته برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من شيخ الإسلام<sup>(٣)</sup> وواحد من كبار العلماء وهو إمام القصر السلطاني<sup>(٤)</sup>. وبحضور السلطان بدأت المحاكمة وقيل لسباتاي أنت تدعي بأنك المسيح ونريد أن تثبت لنا صدق ادعائك، لذا سنجرك من ثيابك ونجعلك هدفاً لأمهر رماتنا، فإن لم تصبك سهامهم أو لم تؤثر في جسدك فسنقر بما تدعي<sup>(٥)</sup>، وعندما أحس سباتاي بالخطر أنكر ادعائه بأنه المسيح وراح بمكر اليهود يظهر رغبته في اعتناق الإسلام عندما عرض عليه ذلك<sup>(٦)</sup> وتسمى باسم (محمد أفندي) وطلب من السلطان والهيئة العلمية السماح له بدعوة اليهود لاعتناق الإسلام، فسمح له بذلك كما عين رئيساً للحجاب في القصر السلطاني<sup>(٧)</sup>.

---

(١) محمد عمر: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) عبدالوهاب المسيري: المرجع السابق، ص ٩٩.

(٣) شيخ الإسلام: هو اللقب الذي كان يطلق على مفتي العاصمة وذلك تمييزاً له عن سائر زملائه رجال الإفتاء الذين يعملون في الأقاليم والمدن الكبرى في أنحاء الدولة، وهو الرئيس الفعلي للهيئة الدينية الإسلامية وإن ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية، وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية، وكانت تعرض عليه القضايا القانونية والجنائية الهامة جداً.

- عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٤) مصطفى طوران: يهود الدومة، ص ١٧.

(٥) من البديهي أن السلطان والهيئة الدينية لم يكن لديها شك في أن سباتاي مدع دجال ولكن كان ذلك العرض من قبيل إقامة الحجة عليه وتشويه صورته وإظهار كذبه أمام أتباعه. ولكن الشيء الذي يبدو أن تلك الهيئة العلمية لم تنتبه له هو أبعاد الادعاء.

(٦) يوسف بك آصاف: المصدر السابق، ص ٩٢.

- محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ١١٨.

(٧) الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الطبعة الثانية (الرياض: مطبعة سفير، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ص ٥٥٩.

ونرى هنا أنه كان من المفترض أن تتنبه السلطات العثمانية من خلال الشكوى التي قدمها ناحيم كوهين إلى خطورة حركة سباتاي زفي وأن لها أطماعاً ومرامي بعيدة، إلا أن ما يؤسف له أن السلطات العثمانية لم تتنبه لذلك وكان غايتها من محاكمته إثبات بطلان ادعائه.

وعلى أي حال فبتظاهر سباتاي باعتناق الإسلام أنقذ نفسه ووجد الفرصة للعمل بحرية، فأرسل إلى أتباعه تعميماً يقول فيه: "كيان سباتاي القديم صعد إلى السماء وبأمر من الله ترك ملكاً مستمراً في كونه المسيح ولكن تحت جبة وعمامة"<sup>(١)</sup>.

ويبدو واضحاً أن سباتاي قد أعلن لأتباعه من خلال هذا التعميم بأنه سيستمر على عقيدته السابقة ولكن مع التكيف مع ما استجد من الظروف.

ثم انطلق سباتاي يخاطب اليهود بكل حرية ويواصل دعوته لهم للإيمان بأنه المسيح كما كان يحثهم على أن يتظاهروا بالإسلام ويبطنوا عقيدتهم اليهودية السباتائية<sup>(٢)</sup>.

واستجاب اليهود لتوجيهات سباتاي فلبسوا العمام والجلب واستبدلوا أسماءهم اليهودية بأسماء إسلامية، وصاروا يترددون على المساجد ويتظاهرون بالحج إلى بيت الله الحرام وبالصيام والاحتفال بأعياد المسلمين وقراءة القرآن، فيما كانوا في أوكارهم يمارسون في الخفاء طقوسهم الدينية ويحتفلون بأعيادهم ويتسمون بأسمائهم العبرية اليهودية<sup>(٣)</sup>.

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن سباتاي قد أقدم على هذه الخطوة بإيعاز من المجلس الأعلى لليهود ليكسب اليهود ثقة الأتراك وليتمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة في الدولة مما سيسهل عليهم تحقيق أهدافهم العدوانية<sup>(٤)</sup>.

---

(١) محمد عمر: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) ظاهرة الازدواجية الدينية عند اليهود ليست بأمر استجد عليهم بل تكرر عبر التاريخ ففي تاريخنا الإسلامي يقود الدور الذي لعبه عبدالله بن أبي وعبدالله بن سبأ خير دليل على ذلك، كما فعل ذلك اليهود مع المسيحيين فقد ظهر اليهود (المارانوس) في البرتغال على أثر محاكم التفتيش الكاثوليكية، فكانوا فرقة يهودية الجوهر كاثوليكية المظهر فكانوا يبنون معابدهم على شكل الكنائس ويظهرون في الحياة اليومية بمظهر الكاثوليك بينما هم في الخفاء يهود متعصبون.

- حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٣) محمد علي الزعبي: الماسونية في العراق (بيروت: دار الجيل) ص ٢١٨.

(٤) س. ناجي: المرجع السابق، ص ٣١١ - ٣١٢.

وقد أطلق العثمانيون على هذه الطائفة اسم الدونمة أي العائدون اعتقاداً منهم بأن هؤلاء اليهود قد هداهم الله فعادوا كما فطرهم مسلمين<sup>(١)</sup> ولم يخطر ببالهم أنهم إزاء قيام فرقة يهودية خطيرة سيكون لها دور ضليع في إضعاف دولتهم وتقويض أركانها.

وبعد مضي عدة سنوات على تظاهر سباتاي زفي وأتباعه بالإسلام قُدمت للسلطات العثمانية شكوى ضده مفادها أنه ما زال يقيم الطقوس الدينية اليهودية، وبالفعل تم ضبطه مع مجموعة من أتباعه في معبد يهودي وهم يرتدون الزي اليهودي وينشدون الأناشيد اليهودية، فحكم عليه بالنفي إلى ألبانيا وذلك في عام ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م، ومن هناك كان يتصل باليهود الذين يقيمون في داخل تركيا عن طريق الرسائل والمندوبين إلى أن مات في عام ١٠٨٦هـ / ١٦٧٥م<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت وفاة سباتاي بداية لمرحلة جديدة في تاريخ طائفة الدونمة حيث انقسم أتباعه بعد وفاته إلى ثلاث فرق هي:

١- اليعاقبة: وهم أتباع يعقوب جلبى أخو زوجة سباتاي الذي ادعى أن سباتاي استخلفه لزعامة الدونمة وأهم ما يميز هذه الفرقة أنهم يظهرن عناية كبيرة بالنقيد بالتحاليم الإسلامية الظاهرة للعيان.

٢- القاراقاشية: أي (ذوي الحواجب السوداء) ويعرفون أيضاً بجماعة عثمان بابا وعثمان هذا هو شخص كانت هذه الفرقة من الدونمة تعتقد بأن روح سباتاي قد حلت بجسده.

٣- القابانجية: وهم أتباع إبراهيم آغا، وأهم ما يميز هذه الفرقة أن معظم أتباعه من المثقفين<sup>(٣)</sup>.

---

(١) بعض المصادر ذكرت رأياً معاكساً لإطلاق هذا الاسم عليهم وهو أن العثمانيين أطلقوا عليهم هذه التسمية عندما اكتشفوا أنهم مازالوا على عقيدتهم اليهودية وأنهم يتظاهرون بالإسلام.

- أحمد الزغبى: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦١٦.

(٢) موافق بني المرجه: المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٣) أحمد نور النعيمي: يهود الدونمة، ص ص ٥٢-٦٢.

- عبدالوهاب المسيري: المرجع السابق، ص ص ١٠٢-١٠٣.

وعلى الرغم من اختلاف هذه الفرق الدونمية فيما بينها على أمور كثيرة فيما يتعلق بشؤونها الاعتقادية والتشريعية فإن لها هدفاً لا تختلف عليه وهو القضاء على الدولة الإسلامية التي يرون أنها حجر عثرة في طريق تحقيق حلمهم بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين - كما وعدهم سباتاي-<sup>(١)</sup>.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف راح الدونمة يتغلغلون في شعاب البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية للدولة العثمانية حتى تمكنوا من إحكام قبضتهم عليها بعد زمن طويل من العمل الجاد، فكانوا بعد ذلك على أهبة الاستعداد لتقديم كل العون لكافة القوى الداخلية والخارجية المعادية للدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وإن كانت الدولة العثمانية إبان قوتها قد استطاعت بعون من الله أن تتصدى لعبث يهود الدونمة وكيدهم رغم محاولاتهم المتلاحقة للنيل منها، فإنهم قد وجدوا فرصتهم عندما أخذ الخلل يتسرب إليها وظهرت عليها مظاهر التدهور، لا سيما وأن هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة العثمانية قد واكبت مولد الحركة الصهيونية كمنظمة سياسية ترمي لإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين والتي وجدت كل عون من القوى الغربية على اعتبار أنه يمكن استغلالها لتحقيق مآربها الاستعمارية. ومن هنا ارتبطت الخيوط التي كان يحيكها يهود الدونمة في داخل الدولة العثمانية بشبكة الصهيونية العالمية التي توجهها القوى الاستعمارية. كما أن هاتين القوتين العالميتين وجدتتا ضالتهما في يهود الدونمة، على اعتبار أنهم أقرب طوائف اليهود لفلسطين، كما وأنه بحكم وضعهم في الدولة العثمانية يمكن أن يختصروا عليهما الطريق لتحقيق أهدافهما<sup>(٣)</sup>.

وقد أثبتت الوثائق التاريخية أن اليهود الدونمة كانوا عند حسن ظن تلك القوى بهم، إذ جددت في هذه الحقبة أمور عديدة في الدولة العثمانية كان لطائفة الدونمة اليهودية دور ضليع في ظهورها، فهناك الفتن الداخلية التي راحت تشعلها داخل النظام الحاكم آنذاك،

---

(١) عبدالله التل: الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، الطبعة الثانية (بيروت: المكتب الإسلامي) ص ٧٥-٧٦.

(٢) محمد على الزعبي: الماسونية في العراق، ص ٢١٩-٢٢٠.

(٣) أحمد الزغبى: المرجع السابق، ص ٦٢٣-٦٢٤.



وكذا تحالفها مع القوى الخارجية لإثارة القوميات والنعرات الطائفية، وإحداث الأزمات السياسية والاقتصادية<sup>(١)</sup> بالإضافة إلى استغلال نفوذها الإعلامي في تركيا<sup>(٢)</sup> في ترويج الإشاعات وإطلاق الأكاذيب لتشويه سمعة السلاطين العثمانيين والحث من قدرهم<sup>(٣)</sup>، كما استغلت ذلك النفوذ الإعلامي في الدعوة لتغريب النظام الاجتماعي للمجتمع العثماني المسلم<sup>(٤)</sup>.

ومن جانب آخر فقد كانت العنصرية الدونية التي تمكنت من الوصول إلى مواقع صنع القرار في الدولة تمثل طابوراً خامساً يعمل لخدمة الدول الاستعمارية المتربصة بالدولة العثمانية ولعل خير مثال على ذلك الدونة مدحت باشا<sup>(٥)</sup> الذي وصل إلى منصب الصدرية العظمى - رئاسة الوزراء - في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م) فجند نفسه لخدمة الدول الاستعمارية وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: "لم يهزني شيء في حياتي هزاً ضخماً قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى ويقبل نقوداً من دولة أجنبية..."

---

(١) إسماعيل الكيلاني: فصل الدين عن الدولة، الطبعة الأولى (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ص ١٨٨ - ١٨٩.

- حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، الطبعة الثانية (بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٢) كان ليهود الدونة سيطرة شبه تامة على كافة وسائل الإعلام ولا سيما الصحافة حيث يمتلكون كبريات الصحف التركية وأكثرها انتشاراً مثل (حريت) و (طنين) و (الجديدة) .

- أحمد الزغبى: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٢٥.

- أحمد نوري النعيمي: يهود الدونة، ص ٦٩.

(٣) جواد أتلخان: الإسلام وبنو إسرائيل، ص ٢٠٤، ٢٠٩.

(٤) مصطفى طوران: يهود الدونة، ص ٤٦.

(٥) مدحت باشا: اسمه أحمد شفيق ومدحت مخلصه الذي اشتهر به سياسي تركي من يهود الدونة، ولد في استانبول عام ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م تعلم العربية والفارسية، وكان متأثراً بالأفكار الغربية، تولى العديد من الوظائف إلى أن أصبح وهو في الأربعين من عمره والياً على بلغاريا ثم عين والياً على بغداد وفي عام ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢ عين صدرًا أعظم في الدولة (رئيس الوزراء) في عهد السلطان عبد العزيز وفي عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م تمكن من الإطاحة بالسلطان عبد العزيز بالاتفاق مع إنجلترا وفرنسا، وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني عينه صدرًا أعظم للمرة الثانية ولكنه أقاله من هذا المنصب عندما تبين له أنه على اتصال بالإنجليز، ثم حوكم بتهمة المشاركة في قتل السلطان عبد العزيز وحكم عليه بالإعدام ولكن السلطان اكتفى بنفيه إلى (الطائف) حيث توفي هناك.

- جورج أنطونيوس: يقظة العرب، تعريب: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، الطبعة الثالثة (بيروت: دار العلم للملايين ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ص ١٢٩.

- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٠٣.

لم يكتف مدحت باشا بإثارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة في السراي ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد في أتون الحرب... كنت أرى الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم، سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى<sup>(١)</sup>.

كما عمد يهود الدونمة إلى تأسيس العديد من الأحزاب والجمعيات السياسية السرية واستقطبوا إليها العناصر الثائرة والمناهضة للحكومة العثمانية وكان من أبرز تلك الجمعيات وأشدها خطورة وتأثيراً على الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية جمعية الاتحاد والترقي التي قادت الانقلاب الدستوري عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م وإزاحة السلطان عبد الحميد عن الحكم عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م<sup>(٢)</sup>. ومما يستدل به على أن يهود الدونمة كانوا وراء قيام هذه الجمعية وأنهم العقل المدبر لكل ما قامت به ما جاء في الرسالة المطولة التي رفعها السفير البريطاني في استانبول جيرارد لوثر sir, Gerard Lowther في ٧ جمادي الأولى عام ١٣٢٨هـ / ٢٩ مايو عام ١٩١٠م إلى وزارة خارجية بلاده مبيناً فيها سيطرة اليهود على جمعية الاتحاد والترقي في قوله: "... ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة في سلانيك كانوا بالدرجة الأولى من اليهود... لقد أصبح كل يهودي كما عبر عن ذلك أحد الأتراك جاسوساً للجمعية الخفية وبدأ الناس يقولون: إن الحركة إنما هي حركة يهودية أكثر مما هي ثورة تركية"<sup>(٣)</sup> كما قدم كاتبان فرنسيان في كتاب لهما بعنوان (جغرافيا التاريخ) معلومات عن الدونمة نشرتها صحيفة (محراب) التركية في عددها الخامس عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م جاء فيها: "الدونمة القابانجية هم أكثر مجموعات أهل سلانيك ذكاء"<sup>(٤)</sup>، فقد اندسوا في خلايا حزب الاتحاد والترقي بشكل كبير وملحوظ ونستطيع القول بأنهم قد أداروا الجزء الأعظم من انقلاب تركيا الفتاة الذي أسقط السلطان عبد الحميد الثاني وهذا الانقلاب قام به يهود الدونمة وهم مسلمون شكلاً وفي الحقيقة معادون للإسلام وكل صلتهم بالإسلام انحصرت في الأفعال الظاهرة فقط<sup>(٥)</sup>.

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد: تعريب وتقديم: محمد حرب، الطبعة الثالثة (دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م) ص ١٠٢ - ١٠٧.

(٢) حسان حلاق: المرجع السابق، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.

(3) Foreign Office (Public Record London) Document: 800/ 193. A.

(٤) سبقت الإشارة إلى أن أهم ما يميز فرقة القابانجية الدونمية أن معظم أتباعها من مثقفي اليهود.

(٥) محمد عمر: المرجع السابق، ص ٤٢.

وبعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني وهيمنة الاتحاديين على مقاليد الحكم في البلاد أخذت النكبات تتوالى على الدولة العثمانية من جراء السياسة الرعناء التي انتهجوها على الصعيد الداخلي والخارجي بسبب افتقاد الكثير منهم للخبرة والحكمة السياسية<sup>(١)</sup> وتعاون الزعامات الدونمية التي انحصرت في أيديهم السلطة الفعلية في هذه الجمعية مع الدوائر الصهيونية والاستعمارية<sup>(٢)</sup>، وكان أكبر جرم اقترفه الدونمة الاتحاديون في حق الدولة العثمانية هو الزج بها في أتون الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢ - ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٤ - ١٩١٨ م التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية وسلخ معظم ولاياتها<sup>(٣)</sup>.

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تسلم الراية اليهودية الدونمة مصطفى كمال الذي تكفل بتنفيذ الجزء الأخير من المخطط اليهودي الاستعماري حيث ألغى الخلافة الإسلامية وطرد الخليفة وجميع آل عثمان إلى خارج البلاد، وحول تركيا إلى جمهورية علمانية<sup>(٤)</sup>.

وهكذا فقد تبين لنا من خلال هذا العرض السريع كيف تنكرت هذه الطائفة اليهودية لفضل الدولة العثمانية وتمكنت من خلال تغلغلها في المجتمع التركي من القيام بدور ضليع في خدمة مخططات الصهيونية العالمية والدول الاستعمارية الرامية إلى القضاء على الدولة العثمانية.

---

(١) أوركخان محمد علي: السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، الطبعة الأولى (الكويت: دار الوثائق، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م) ص ٣٢٠.

(٢) س. ناجي: المرجع السابق، ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٣) يلماز أورتونا: تاريخ الدولة العثمانية، تعريب: عدنان محمود سليمان، جزآن، الطبعة الأولى (استانبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ج ٢، ص ٢٣٥، ٢٣٩.

(٤) عبدالله التل: الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، ص ص ٨٩ - ٩٠.